صـدر عـن (المدى)

في الائتلاف والاختلاف

ثنائية السائد والمهمش في الفكر الاسلامي القديم

عرض : نزار عبدالستار

تبحث التونسية ، ناجية الوريمي بوعجيلة ، في كتابها (في الائتلاف والاختلاف / ثنائية السائد والمهمش في الفكر الاسلامي القديم) الصادر عن دار المدى جملة قضايا تتعلق بالفكر الاسلامي ، واشكالية محدودية الجهد المبذول

مع هذا الارث ، وهي محاولة لاعادة النظر في الفكر (القديم) بعيدا عن المعايير التقليدية سواء كانت مذهبية ام سياسية ام عرقية . وترى بوعجيلة التي نالت عن بحثها شهادة الدكتوراه عام (٢٠٠٣) ان البحث في ثنائية السائد والمهمش يرتكز على حقيقة ثراء الفكر الاسلامي وعمقه وعلى تنوعه ؛ فضلا عن القصور المسجل في الدراسات التقليدية التي كانت احادية الجانب ولم تخضع هذا الارث الثر الى الدراسة الموضوعية ، وترى في هذا حافزا قويا لمراجعة المناهج والنتائج على حد سواء .

الكتاب يتهم المناهج القديمة بانها لم تتجاوز اعادة انتاج الاراء والمواقف التي تبنتها الاطراف المنتصرة ابان (الصراع التأسيسي) حيث تورد الباحثة جملة تفاصيل توضح علاقة المتسيد ودوره في خرق قواعد النص في النصف الاول من القرن الهجري الاول ومدى ضخامة البناء الذي نشأ على تأويل السلطة عصرئذ ، ومدى توافق هذا مع المتغير الفكري جراء النمو الثقافي والمتغيرات الحياتية التي اوجدت ايضا فرصة تغيير التفسير . الا ان هذه الحياتية لم تستمر على النهج نفسه وانما رسخت بشكل جامد ، وان الصورة التي رسمت للائتلاف والاختلاف في العديد من القضايا التي شكلت ، فيما بعد ، الارض الخصبة للتنظير والتأسيس كانت مفروضة من الاعلى وتم الاتفاق عليها من قبل الاطراف المنتصرة ، وان هذه الصورة وضعت في سياق البحث التقليدي وجرى نشرها عبر الاجيال ؛ فغابت الخصوصية والنسبية عنها وبرزت في المقابل الشمولية والحقائق المطلقة ، وترى الباحثة ان الدراسات التقليدية عملت على تكريس المسلمات بعد تخليصها من سياقها التاريخي وهذا ادى الى ان ينطلق دارس الفلسفة من جملة معطيات يفترض صحتها ويبني عليها مقترحاته الفكرية . لكن تلك المعطيات ليست ، في الكثير من الاحيان ، الا بداهات في حاجة الى المراجعة قبل ان نبني عليها من جديد.

الكتاب يتناول بالبحث فترة النشأة والتكوين بالنسبة الى الخطابات التي وضعت حول النص وهي ، كما تقول الباحثة في مقدمتها ، فترة بحث عن الحلول والاجوبة لاسئلة طرحها واقع حضاري مميز . وتصف الباحثة هذه المرحلة بـ (الاضطراب الحيوي) وهو ما سبق الهدوء المميت الذي قام على مصادرة الاختلاف والالتزام بالاحادية في كل الابعاد وهذه الفترة يمكن حصرها بقرنين الى ثلاثة قرون. .

كتاب الدكتورة بو عجيلة يقف عند نقطة ذات اهمية بالغة وهي مسألة التهوين من الاختلاف حيث ان الدراسات التقليدية تتجنب الاشارة الى الاختلاف بدعوة الالتزام الاخلاقي وتورد الباحثة رأيا يقول ان احدى وظائف هذا التهوين المتعمد تكون مشدودة الى الماضي وتهدف الى تنقية صورته من الشوائب التاريخية حتى يكون مثالا ليحتذى فترتقي المنظومة بمختلف عناصرها الى بداهة المثالية والاطلاق وتتحول الى سند قوي لتبرير الاختيارات السائدة . اما الوظيفة الاخرى فتكون مشدودة الى الحاضر والمستقبل وتهدف الى التشريع لتوحيد الصفوف بين المسلمين . وعلى هذا الاساس تعد الدراسات الفلسفية التي خصصت لاشكالية الاختلاف في الفكر الاسلامي القديم مفيدة في ابعادها التجريدية الباحثة عن شروط تحقق الهوية بالنسبة الى الانسان في الثقافة الاسلامية . لكن في ابعادها الاجرائية التطبيقية تظل في حاجة الى دعم الدراسات المتخصصة في قضايا الفكر الاسلامي .

قسمت الباحثة الكتاب الى مراكز اهتمام ثلاثة ، الاول بحث في اسباب النزول كما شاعت في خطاب التفسير ، وكما جاءت في خطاب السيرة . اما الثاني فقد بحث في الفكر الاصولي بين التأسيس الارثذوكسي وامكانات اخرى مغايرة وطريقة عرفها الفكر والواقع الاسلاميان . واختص الاهتمام الثالث بطبيعة النص القرآني واختلاف العقل الفقهي والعقل الكلامي في تصورها وهو ما اصطلح على تسميته بمسألة خلق القرآن او قدمه .

في القسم الاول حاولت الباحثة معالجة العلاقة بين سبب النزول والدلالة في النص القراني من خلال الذي سجلته بين خطابين في تعاملهما مع الموضوع نفسه ، خطاب التفسير وخطاب السيرة . وحاولت بوعجيلة البحث عن مؤشرات الاختلاف بينهما اعتمادا على مقارنات مطردة . وانطلاقا من النتائج والحقائق المرصودة حاولت الباحثة الكشف عن اليات تشكيل الخطاب لينهض بوظائف اخرى غير الوظيفة المعرفية .

وفي القسم الثاني كانت الاشكالية : ماهي نوعية الامكانات التي عرفها الفكر الاسلامي في المنهج الفقهي الاصولي وماحقيقة الاختلاف بينها ؟ . وقامت الباحثة في معالجة هذه الاشكالية بعملين يخص الاول تحليل الخطاب في النص الذي اعتبر مؤسسا لمنهج اصولي ارثذوكسي وهو نص الرسالة للشافعي ، بهدف الوقوف على العناصر المخالفة له والتي تأسس هو باقصائها . ويخص العمل الثاني البحث عن شظايا منهج مغاير للمنهج الارثذوكسي ، كان قد بدأ مع تجربة اصولية متميزة هي تجربة عمر بن الخطاب ، وتواصل بشكل مشتت لدى مفكرين اخرين ، منهم من هم معاصرون للشافعي .

اما في القسم الثالث فكانت القضية المطروحة بمثابة المجال الذي تقاطعت فيه انساق فكرية متباينة تحسست الباحثة بعض جذورها في القسمين السابقين ، وهي قضية خلق القران والمحن التي اقترنت بها . وسعت بو عجيلة في معالجة هذه القضية الى تقديم مشروع اجابة عن الاسئلة الاشكالية التالية : ماحقيقة هذه المقولة الكلامية : (القران مخلوق) . لماذا تقاطع فيها بشكل دموي (الفكري) و (السياسي) ؟ . لماذا عرفت تحولا خطيرا في الواقع من حيث نوعية الممتحنين ، بين علماء كلام ومحدثين ؟ . ثم ماهو الدور الذي قامت به هذه المسألة الثقافية السياسية في تحديد مسار انظمة فكرية متصارعة ؟ .

وفي القسم التأليفي قامت الباحثة بعملية اختراق افقي لمجمل القضايا والاشكاليات المطروحة في الاقسام الثلاثة السابقة بحثا عن مقومات متناسقة يمكن الحديث معها عن انظمة فكرية تتفاوت ثراء معرفيا وفعالية تاريخية انسانية .

وتتوصل الباحثة الى ان معظم العلماء ، غير المرضي عنهم في الثقافة الرسمية القديمة ، قاموا بفرض الرقابة على انتاج المعنى واعادة انتاجه من تكريس الكثير من حقائقه على مدى زمني يشمل العصور القديمة والحديثة وتقديم المعنى مجردا ومطلقا . ويتضح للباحثة ان توزيع مواقع الائتلاف والاختلاف في الحقول المعرفية المدروسة من اسباب النزول واصول الفقه وعلم الكلام يساعد الى حد بعيد على اعادة النظر في التصنيف التقليدي للفكر الاسلامي القديم وذلك بهدف الكشف عن اشكاليات المعنى واليات انتاجه ومن وراء ذلك تحسس معايير نظرية واجرائية يفضي اعتمادها الى بلورة الانظمة الفكرية التي شهدها هذا الفكر ومثلت في مرحلة تكونه شروط حركيته وتطوره .

لقد استفاد الفكر من جدلية الاختلاف ومن الحيوية المقترنة به وذلك في فترة تكونه وبحثه عن الاجوبة المعرفية واليات انتاجها . وتتوصل الباحثة ايضا الى ان العقل السياسي حقق انتصارا باقصاء العقل المعرفي وان الاختلاف المحرج المتولد عنه قد اقصى معهما شروط حيويته الفكرية المتمثلة في السعي الدؤوب الى تجويد الالة الحجاجية وتقوية الطرف المعرفي للاراء والمواقف المرجحة فراح انتاجه الفكري يتوالد من بعضه البعض في ضرب التضخم الكمي الذي يتقاطع مع هدف الاستجابة لمقتضيات الواقع التاريخي المتحول ليظل اسيرا لهدف الاستجابة لمقتضيات الوفاء لفهم معين للنص صاغته اطراف سلطوية معينة .

رشدي العامل ورحلة الحروف الخضر

طلال سالم الحديثي

رحلة الحروف الخضر عند الشاعر رشدي العامل قد تكون هي رحلة الألف ميل التي تبدأ بخطوة واحدة خطاها في عقد الخمسينيات – عقد الريادة الشعرية- إذا صح الوصف معتمداً على ما ظهر من الشعر الحر حينها على يد رواده: نازك الملائكة، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي، بلند الحيدري، أو قد تكون رحلة صيف من رحلاته التي هد شراعه فيها التعب ليرى الوهم منتحبا في العيون، ودليلاً يأخذ بيده الى الاغتراب. وفي تجربة رشدي العامل غربتان حددهما صديقة الشاعر والناقد عبد الجبار عباس، عانى الاولى طالباً لاجئاً في القاهرة، يهدي احزانه الى (نافذة في بغداد (نافذة تصرخ في بيتي- مضيئة عالية السمت – عد .. إن يوماً بارد الموت- يطبق أهدابي ولا تأتي- عد لي طيور البحر مرّت بنا- ولم تجد صوتك في البيت)، وفيها من تأثير الغربة الرومانسية المبكرة في (همسات عشتروت) إستطابة القنوط والبوح الصادق بالوحدة وزحف الجليد : وحدي غريب الظل، مات اللظى –بين جفوني فارغ الوقت –أعيش في صمتي –أذوي وأذوي دونما صوت –عمري خطى تمضي بلا أنجم –لا تنظري حبي فلن يأتي..). واما الرغبة الثانية (الاكبر) زمناً وتأثيراً فقد بدأت حين رأى الشاعر (مدينة خلف المدينة) تمنح ابناءها عذوبة الليمون وجمال انهار الصباح، ولكنها (مدينة متعبة تدفن في الليل خطاياها –تلثم قبل الدفن موتاها- تحلم بالسكين في الاعياد عيناها). كان الشاعر اختار طريقة، وعانى من أجله، ولكن .. بدلاً من أن يرى الشعر المستقبل في أفق مديد، راح ينبجس من (لحظات الحنين الذي يتطلب ثمناً فادحاً) كما كان الحال لدى الشاعر كريستو بوتيف، الذي كتب عنه (رشدي) مقالة دالة على صلة الشبه. ومن الغريب حقاً أن رشدي العامل كان كمن يحدس ما ينتظره في الشوط الاخير حين كتب عن الشاعر البغاري سنة ١٩٥٨: (إن اللوعة لم تفارق نفسه في انه يذوي ببطء، وفي ان أمانيه ستظل أبداً مجرد مهشمة، حتى أمانيه البسيطة).

صدرت مجموعة رشدي العامل الشعرية الاولى عام ١٩٥١ وكانت بعنوان (همسات عشتروت) وهي مجموعة رومانتيكية نهجت نهج الشعر المهجري في العديد من مفاصلها، بعدها صدرت للشاعر سبع مجموعات هي: أغان بلا دموع (١٩٥٦) و (عيون بغداد والمطر) (١٩٦١) و (للكلمات ابواب واشرعة) (١٩٧١) و(أنتم اولاً) (١٩٧٥) و(هجرة الالوان) (١٩٨٣) و(حديقة علي) (١٩٨٦) و٠الطريق الحجري) (١٩٩١).

ويرى د. جليل كمال الدين أن (القصيدة الرشدية الحديثة) نموذج من جيد وجديد الشعر الحديث). حيث كان ثمة مسعى جماعي- يقول الناقد عبد الجبار عباس –تبلور لتشكيل قصيدة (عراقية) الملامح، هي أغنية دافئة مأنوسة او مشهد مركز منتقى ، تعادل فيها تأثير ثقافي وافد يتصدره تمثل تجربة (لوركا) في أغانيه الغجرية على صعيدي المضمون والتقنية وتأثير فكري تلخصه ضرورة السمات، سواء كانت هذه الجذور ضاربة في قرية (مغبرة الاكواخ خضراء المياه) من قرى الاهوار، او في مشهد يومي من مشاهد الشارع والسوق والزقاق. وهكذا اضحت القصيدة عند رشدي مزيجاً متجانساً من ثلاثة عناصر: الحياة اليومية، والتفكير-البوصلة، والغناء وبذلك ينأى الشاعر عن ان يكون من (ضحايا الخيالات) حين يرى ان الشعر يغدو اكثر غناءاً عندما يلتصق الفم الذي ينشده بالتراب والدم والحقل الاخضر ، وكل ما تهبنا أياه الحياة من خصوبة، وبذلك يضمن لمساره الشعري القوة والحيوية والتجدد. كان النغم في هذا الشعر ضرورة وشرطاً لا غنى عنه، ومن تأثير ذلك في شعر رشدي العامل إيثار الاوزان الراقصة والتفاعيل القليلة في الاشطر، والحرص على قافية (أولى) تعضدها قافية اخرى او تتموج بين قافيتين . وبتأثير التيار الرومانسي الواسع جاءت قصيدة (رشدي) نصاً ذا إيقاع ورنين، حتى إذا كان هذا الايقاع غير متطابق مع الحالة الوجدانية المستثارة. وكان رنين القافية تكراراً او (الحاحاً) لا ضرورة واضحة له، واتخذت في الاغلب- نمط القصيدة ذات الموجة الواحدة، حتى لقد لوحظ ان شعره في –عقد السبعينيات- كان يهفو الى تركيبة في التناول، ولم يكن رشدي عاجزاً عن تنمية تلك البذرة التي بذرها في (المثقف) لكتابة القصيدة- الكورال، كأنها تعد لمهرجان.. ولكن غلبة الترويح في البوح الغنائي والاخلاص لتقاليد النشأة ابقيا شعره قريباً من واحة الخمسينيات الظليلة.

ترامت فصول حياة الشاعر بين العام (١٩٣٤ والعام ١٩٩٠) وكانت حياة حافلة صاخبة لكنها كانت منتجة اثمرت ثمانية دواوين شعرية، وكان بالامكان ان ينتج الشاعر اكثر من هذه الدواوين الثمانية لولا المرض وسوء صحة الشاعر بسبب معاقرته الخمرة، فقد كان مدمناً أستعصى شفاؤه، وكان أصدقاؤه الذين اصطفاهم مدمنين مثله ومنهم الشاعر حسين مردان والقاص نزار عباس. كتب ذات مرة قائلاً: (إن كل شيء يتجدد ويستمر بينما يختفي الى الابد قلب الشاعر ليعيش حياة متجددة في قلوب الآخرين) وتلك مأساة الشاعر.

كائنات اسماعيل فتاح الترك

كاظم الجماسي

تحدث المماهاة- ليس بوصفها استبدالاً او حلولاً بالمعنى العرفاني على الرغم من اقتران الاخير الى حد ما بجوهر العملية الابداعية- تحدث لدى الفنان كمنتوج مستخلص بعد احترافات تخييلية متفاعلة تلم بروحه متحولة فيما بعد الى عمل فني ما ان ينجز حتى يقلب ظهر المجن لصانعه.

ان ما تنتهي (الروح المعذبة) من صبه في الفراغ، هو فراغ مجازي حتماً، ليشغل حيزه الخاص متجسداً في كتلة لا تكون بمعزل عن شبكة علاقات تربطها بكتل اخرى تشغل معالم المحيط الفيزيولوجي والسايكولوجي لتنسج بعون من توائمات المكان والزمان خطابها الرؤيوي المتناسل وفقاً لاشتراطات العين الرائية. والمرئي لدى اسماعيل فتاح الترك يتسم عموماً ببساطة متناهية، بساطة الدفقة البكر للاحساس الاولي بالوجود، لحظة الاندهاشة الحافلة من جراء لمسة حية نابضة لسطوح الاشياء، دائماً هناك القطبية ذاتها، القطبية التي يترشح عنها معنى الوجود والعدم، الوجود في الشفة النابضة شبقاً، والعدم في طمس الملامح الاخرى المحيطة بتلك الشفة، او ما يبدو من عناق في انحناءة رسغ الرجل وهو يحتضن خصر امرأة ما ، او انقسام الكتلة في الاعلى وواحديتها في الاسفل، الوجه الخائب او الباكي او النائم والمرآة المشوهة اسفل الفك، هناك اندحار دائم في دقات العيون يقترن دائماً بشهوة عارمة مقبلة على الحياة، وآثار اخرى كثيرة تقرأها العين الرائية.

تلك قراءة القماش، اما قراءة البرونز فتشي بالكثير، واول ما يترسب منها هشاشة الكائن، هناك اعياء او مرض يلف الكتلة دائماً حتى ذلك المربع الصقيل للوجه المطموس المعالم سوى انف منسدل من جبهة صماء وفم منفرج باستحياء مخلفاً ظل ابتسامة او همسة بوح ربما، حتى ذلك الوجه المربع على الرغم من صلادة البرونز وصقالته هناك اندحار ماثل في كونه مركوناً تحت وطاة الاطار العريض والمتين الذي يحيط به من جهاته كافة. ثم هناك اغفال مقصود دائماً للرأس، الرؤوس في اعمال الترك غالبيتها اما مضمحلة متصاغرة او غير موجودة على الاطلاق، فالكائن الواقف الذي يمد ذراعه اليسرى نحو فكه مفكراً، فيما ذراعه اليمنى مقطوعة ومعلقة على سرته، يحمل رأساً بالغ الصغر، والاخر الذي يركن عجيزته الى فراغ ويسبل يديه على ركبتيه، لايحمل رأساً بالمرة.

ستشعر العين الرائية للوهلة الاولى عند ارتطامها بسطوح البرونز وانبعاجاته بالليونة والشفافية التي يخلفها ملمس الطين- ربما كان ذلك تمظهراً آخر لما اسميناه بالهشاشة- وهو على ما يتكرس عقلياً في الاصرار على التقاط الانبثاقة الاولى للاشياء فولادة الكائنات في مقتبل الوجود لا تعطي قسمات كاملة ناضجة المعالم، ستبدو دائماً في طور التشكل، وهي اللحظة التي تضع العين الرائية بالضبط في بؤرة جوهر الوجود (فعل التشكل) .

لطخة اللون ومحو الحدود الدقيقة للوجه او الجسد، الايهام باللامبالاة، فعل مقصود لاظهار الثيمة المحورية للعمل الا وهي –فعل التشكل . ان النجاح في الامساك بتلك اللحظة هو حصراً وبالضبط ما يمنح ديمومة منقطعة النظير للمنجز الفني، ايما منجز، وهذا ما طفحت به كائنات اسماعيل فتاح الترك .